كان صوت احتكاك عجلات السيارة « نصر » الصغيرة بأسفلت الطريق بعد أن ضغط قائدها فجأة على « الفرامل » كافيا لأن يهز المقعد من تحت فاطمة ويجعلها تلقى بكتاب كان بيدها جانبا وتمد رأسها لتوجه حديثها الى زوجها الذى يجلس خلف عجلة القيادة وقد تملكها رعب حقيقى :

قصة : محمد أحمد الشرقاوى

الحقيقة الأخرى

ـ ماذا حدث يا مصطفى ... أنت تخيفنى بقيادتك هذه ؟!

ـ آسف يا عزيزتى .. لم أقصد ازعاجك .. كنت سأضل الطريق .

وساد الصمت بينهما برهة كانت السيارة خلالها تثير خلفها عاصفة كبيرة من الغبار بعد أن تركت الطريق المعبد وسارت بضع مئات من الأمتار على طريق زراعى ضيق يكاد من فرط ضيقه أن يجعل من مرور السيارة أمرا صعبا فى أماكن كثيرة وفجأة دفعت فاطمة برأسها مرة أخرى الى الامام من مقعدها الخلفى وقد فغرت فاها واعترى وجهها الابيض المستدير مزيجا من الانفعال والدهشة وقالت وهى تثبت منظارها على عينيها :

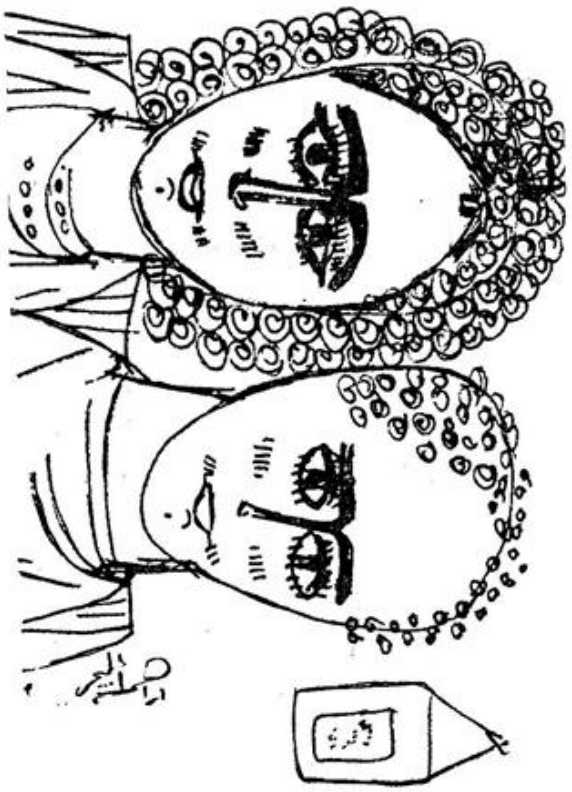

ـ هل جننت يا مصطفى ... ليس هذا هو طريقنا المعتاد ؟

ـ أعلم ذلك يا عزيزتى .

وسكت مصطفى ثم أشعل لفافة وجعل ينفث دخانها فى هدوء بينما ما زالت فاطمة واقفة ووجهها ينطق بحيرة شديدة وهى تحاول التحكم فى أعصابها

التى كاد أن يفلت زمامها منهـا بعد أن ضايقها مصطفى بطريقة حديثـه معهـا وكلماته المقتضبة التى تركتهـــا وهى أشد حيرة من ذى قبل :

ـ هل أستطيع يا عزيزى أن أعرف الى أين نحن ذاهبين ؟

وقال أحمد وعيناه مثبتتان على عداد السرعة :

ـ أجل يا فيفى ٠٠ هذا من حقك ٠٠ نحن يا عزيزتى ذاهبون لزيارة صديق ٠

ـ ولماذا لم تصحبنى معك فى زياراتك السابقة حتى أتعرف عليه ٠

وابتسم مصطفى وزادت ابتسـامته واتسـعت لتصبح ضـحكة كبيرة تردد صداها بين جنبات العربة الصغيرة بينما تملكت الدهشة فاطمة من جديد ثم قال مصطفى وأثار الضحك ما زالت عالقة فى وجهه الصغير الأسمر :

ـ الأمر فى منتهى البساطة ياعزيزتى ٠٠ اننى أزور صديقى هذا كل عام فى هذا اليوم بالذات ٠٠ وبالطبع تذكرين أننا تزوجنا منذ أربعـة شهور فقط ٠٠ اليس كذلك يا فاطمة ٠

لم تتكلم **فاطمة** بعد ذلك بل جلست فى مقعدها الخلفى وأمسكت بكتابها مرة أخرى وكلمات **مصطفى** مازالت تدور فى رأسها ٠٠٠ زيارة صديق٠٠ نفس اليوم من كل عام ٠٠ أشياء غير مفهومة وهكذا عودها **مصطفى** منذ تزوجها ٠٠٠ كلماته دائما غامضة مبهمة ٠٠ انه يجعلها تحس دائما أنها أقل منـه ذكاء وثقافة وينتهز كل فرصة للسخرية منها ومن تصرفاتها حتى تدمع عيناه من الضحك ٠٠٠ هذا لاحساس الضخم بتفوقه عليها يضايقها ويحول حياتها الى جحيم٠٠ قضت سنوات دراستها حتى تخرجت طبيبـة وهى لا تقرأ الا كتب الطب ولا تنـاقش الا فى علوم الطب ٠٠٠ كانت كلمـات الثقافة والادب والسـياسة تبدو شـبه غامضة بالنسبة لها ولم تفكر فيهـا فى يوم من الايام ولم تحـاول فى أى لحظة أن تجهد ذهنها فى أشياء كهـذه بل كانت تعدها مضيعة للوقت وعبثـا لا طائل منه حتى قابلت مصـطفى ويومهـا أدركت الهوة العميقة التى تفصل بينهما واحست كان الأرض تنهار من تحت قدميها وبرغبة عميقة فى البكاء ٠٠**مصطفى** ٠٠ كم يقسو عليها فى بعض الأحيان ولكنها تحبه لأنه طيب ووديع وذكى لا يسـتقر فى مكان ولا يعجبه اى شىء ٠٠ الملل والنفاق عدواه اللدودان ٠٠ يبدو دائما كأنه يبحث عن شىء لاوجود له وهو فى بحثه لايكل ولا يتعـب ٠ وهى لا تعـلم حتى الآن لمـاذا يسخر منها ويحتقرها وفى نفس الوقت يشعرها أنه يعبـدها وطالما بكى كطفل على صدرها ٠٠ كانت عيناها لاتفارقان الكتاب الممدود أمامها وصوت «**كلاكس**» السيارة يدوى فى أذنيها بين لحظة وأخرى ليفرق مجموعات الأطفال التى تتصايح وتملأ الطريق الضيق الذى يمتد كثعبان طويل يتلوى ثم قامت فاطمة لتغلق نافذة السيارة الزجاجية بعد أن بدأت حبات التراب الصغيرة تتسرب الى خياشيمها ثم خرج صوتها من جديد وهى تغالب نوبة من السعال :

ـ هـــل بقى الكثير حتى نصـــل يامصطفى ؟

ـ لا يا عزيزتى ٠٠ ربع سـاعة على الاكثر ٠

وعادت الى كتابهـا مرة أخرى بينما امتـدت حقـول القطن الشـاسعة أمام مصطفى فبدت أمام عينيه كأروع مشهد يراه انسان ٠٠ أكتوبر ٠٠ شهد الرخاء للفلاح المصرى ٠٠٠ ينتظره طول العـام

بصبر نافذ ففى أيامه السعيدة يجنى القطن ويعم الخير وتملأ النقود الجيوب الخاوية وعلى طول الطريق كان يصل الى أسماعه صوت الفلاحين وحناجرهم ترتفع بأهازيج طالما ابتهج لسماعها وارتعش قلبه الصغير لترديدها ... وعلت وجهه ابتسامة باهتة عندما رأى فى المرآة المثبتة أمامه فاطمة وكتابها ما زال راقدا بين يديها ... كنت أنتظر هذه الأيام من كل عام وأعد لها بالدقيقة ... هؤلاء الذين تمتد أيديهم الآن لتنزع من شجرات القطن ثمارها الثمينة أكاد أحسدهم ... كم أود أن أترك سيارتى هنا فى هذا المكان وأنزع ثيابى البغيضة هذه وأرتدى جلبابا واسعا وأربط وسطى بحبل ثم أملأ صدرى حتى ينتفخ باللوزات البيضاء المتفتحة ثم أجرى وسط الحقول الممتدة الواسعة حتى ألهث ثم أجلس لأستريح وأقوم وأتسلق أطول شجرة نخيل هنا وأجنى ثمارها بنفسى وأقضمه هناك فى الهواء بعيدا عن الارض وأستنشق عبيرا صافيا افتقدته منذ مدة ... أكاد أختنق هنا فى هذه السيارة الصغيرة وصوت موتورها اللعين لا يكف عن الأزيز لحظة واحدة ... أحس كأن رباط عنقى يضيق حول رقبتى شيئا فشيئا حتى يكاد يخرس أنفاسى اللاهثة عشرة أعوام كاملة وأنا حبيس ملابسى هذه ... لقد أصبحت رجلا وستلتحق بالمدرسة الثانوية بعد اسبوع ولا يليق بالرجال أن يجروا وسط الحقول أو يتسلقوا أشجار النخيل ... هكذا قال والدى ويومها بكيت بأعلى صوتى وضربت الحائط برأسى وامتنعت عن الطعام يومين ثم جاءت نفس الكلمات... لن تذهب الى هناك بعد اليوم ... هكذا قلت وهكذا سيكون ، دواب الفلاحين

تملأ الطريق أمام السيارة وصوت « الكلاكس » يفزعها ويجعل أصحابها يصبون اللعنات على الافندية أصحاب السيارات الذى يتسببون فى ازعاجهم ومزاحمة الطريق على حيواناتهم، وبدأت السيارة تقترب من بيوت القرية الواطئة السوداء ... لايعرف مصطفى لماذا ينتابه هذا الشعور عندما تبدو له أى قرية من بعيد ... تكاد كل خلية فى جسده تنتفض فرحة مبتهجة ويحس كأن شيئا ثمينا قد عاد اليه بعد طول غياب وأن حواسه كلها قد أصبحت يقظة نشطة بعد أن وجدت مكانها الطبيعى التى تستطيع أن تمارس فيه نشاطها وحيويتها وبعد دقائق كان مصطفى يشق القرية بعربته ... قرى مصر تتشابه كلها ... نفس أشجار النخيل والمنازل الداكنة وحبات العرق التى تتعضد على حياة أولئك الناس الطيبين الذين يزرعون لنا الارض الطيبة وبلغ القرية من الناحية الأخرى ثم استدار وسار بضعة مئات من الأمتار ليتوقف بعدها وينزل من السيارة ثم أخذ طريقه على شريط ضيق وسط الحقول ثم توقف والتفت خلفه ليجد فاطمة تتعثر وهى تحاول اللحاق به ثم قالت لاهثة وهى تنظف حذاءها من آثار الطين الذى علق به :

ـ أين يسكن صديقك هذا يا أحمد

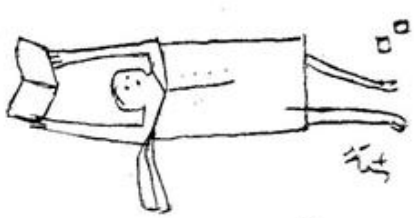

.. لقد عبرنا القرية من شرقها الى غربها ثم جئت الى هنا .. هل يقيم صديقك فى هذه الحقول .

وقال أحمد وهو ينزع لفافته من بين شفتيه ومسحة من الحزن تغطى وجهه :

ـ أجل يا عزيزتى .. هناك .

ثم أشار بيده ولم تر هى شيئا بل سارت الى جانبه ولم تحاول الكلام فهى تعرف من تجاربها الماضية معه أن الحديث فى مثل هذه الأوقات لن يجدى شيئا بل من الأفضل أن تظل هكذا صامتة وبعد وقت ليس بالقصير وجدت فاطمة نفسها أمام شىء أشبه بمنزل صغير له سور مرتفع يرقد وسط غابة صغيرة من أشجار الكافور ودب فى قلبها شعور مبهم بالخوف ومصطفى يتقدم ليدق على الباب دقات شديدة متوالية انفتح الباب بعدها عن كهل له لحية بيضاء طويلة تتدلى على صدره وقال وهو يكاد ينكفىء على وجهه :

ـ مرحبا يا دكتور مصطفى .. لم تخلف ميعادك أبدا .. ومن الذى معك يا دكتور ؟ .

ـ زوجتى يا عم ابراهيم

ـ مبروك يا ولدى .. آلف مبروك .. الزواج نصف الدين .

وسارت **فاطمة** خلف **مصطفى** وقد تقدمهم الكهل وقادهم الى باب آخر وعقدت الدهشة لسان فاطمة فلم تستطع الكلام بعد أن كادت ، فقد انفتح الباب عن مقبرة رقدت الى جوارها باقة كبيرة من الزهور وقال العجوز وهو يحاول بكل قوته أن يرفع الباقة الضخمة ليقدمها لأحمد : ـ

وأسرع مصطفى ليحمل عنه الحمل الثقيل ثم تقدم ليضعه فوق المقبرة الصغيرة والدموع تملأ عينيه ثم مال برأسه على حافة المقبرة وقد أصابته موجة عنيفة من البكاء وتملك الاضطراب فاطمة ولم تدر ماذا تفعل فقد سيطر عليها فى تلك اللحظات شعور عميق بالحزن والفزع ... الكهل يبكى هو الآخر ودموعه تتساقط على خديه الضامرين ثم تتسلل ببطء بين شعرات لحيته التى تبدو بيضاء كالثلج لتنزل على صدره ساخنة غزيرة وبعد لحظات وجدت فاطمة نفسها تبكى هى الأخرى وقد غطت وجهها براحتيها ولم تدر كم من الوقت مر وثلاثتهم على هذا الحال ثم نهض مصطفى من جلسته وهو يجفف دموعه ثم وضع يده على كتف زوجته وبعد لحظات قاموا خارج المقبرة وعندما أدار مصطفى موتور السيارة ليبدأ فى العودة كانت آثار الدموع ما زالت عالقة فى وجهه وعينيه ثم قال وهو يحاول السيطرة على كلماته :

ـ هذه هى مقبرة صديقى فوزى يا فاطمة .. مات فى حادث منذ خمس سنوات .. كان أمله أن يصبح طبيبا .. كنا أصدقاء العمر .

ثم جذب نفسا عميقا من لفافته وعيناه ما زالتا تراقبان الطريق وقال .. ماتت أخته الكبرى عندما أخطأ طبيب فى تشخيص مرضها وعلاجها ولهذا صمم على أن يكون طبيبا .. كان مصطفى يتكلم كأنه يجب أن يتكلم .. لم يكن ينتظر من فاطمة جوابا .. كان يحس أن شيئا ما يثقل صدره ويكاد يحطمه ولهذا أحس أن يرغب فى الكلام .. أن يقول أى شىء .. لا يهم أن ينصت اليه أحد .. بل من الأفضل أن يحدث نفسه دون أن يرفع صوته أو تتحرك شفتيه .. شيد له أبوه المقبرة فى نفس المكان الذى كان يقضى فيه عطلته الصيفية .. وحيدا ..

بعيدا عن الضوضاء .. هناك تحت غابة الكافور الصغيرة .. فوزى كم كنت أحبه .. كانت عيناه تشعان بريقا غريبا كلما ثار وما أسرع ثورته وهياجه .. كان متطرفا فى آرائه أيما تطرف وما أكثر ما اختلفنا وتخاصمنا ثم نعود كأروع ما يكون الأصدقاء .. كنت أتحمل ثورته وتطرفه عن طيب خاطر وأتنازل عن حقى ثم أقنعه فى هدوء فيستكين الى جانبى كقط هادىء وديع ويكاد يبكى وهو يعتذر الى عن تهوره وتسرعه ثم كان يوم ثار فيه وغضب مثلما لم يثر من قبل .. كنا فى الأسبوع الأول من دراستنا فى السنة الأولى بالكلية ، وتطاحن مع فاطمة على مقعد بالمدرج وكاد يومها أن يشتبك معها ثم جاء لى بعدها يقول انه أحبها وانه لا بد أن يتزوجها وبات لا يتحدث الا وقد ذكر اسمها وانه لا يستطيع العيش بدونها وقال انه يحس انها تبادله نفس الشعور لأنها تنظر اليه نظرات خاصة يفهمها هو ليس لها معنى سوى أنها تحبه هى الأخرى وأرسل الى والده خطابا بذلك يطلب فيه موافقته على الزواج من فاطمة وبعد أسبوع حملته عربة الأسعاف الى «قصر العيني» بعد أن صدمته سيارة ملعونة وفى نفس اللحظة التى وصل فيها بات الأمل فى نجاته قليلا فقد أصيب اصابات جسيمة ونزف قدرا كبيرا من الدماء وفى الصباح المبكر لفظ أنفاسه الأخيرة وفى المدرج الكبير كتب أحد الزملاء على السبورة نعيا له ووضعوا صورته حتى يتعرف عليه من لا يعرفه ويومها وبعد انتهاء المحاضرة من الجميع أمام الصورة ووقفوا والدموع تكاد تطفر من عيونهم الا فاطمة وصديقة لها فقد ألقوا نظرة خاطفة على الصورة كأن الأمر لا يهمهم تماما ولحظتها تملكنى شعور قوى بالحزن والغضب .. كدت أفقد صوابى وأنهال عليها بيدى حتى أفقدها الوعى .. كانت تتحدث مع صديقتها عن آخر الافلام والأزياء وهم يغادرون المدرج .. مات المسكين وهو يعتقد انها تبادله عاطفته والآن لم تكلف نفسها مشقة النظر الى صورته ولو للحظة واحدة وكادت عيناى تخرجان من محاجرهما وهى تبحث عن فاطمة فى الجنازة الكبيرة التى سارت من المستشفى حتى المسجد حيث صلينا على روحه الطاهرة .. أصبحت أكرهها ، بل أكره الأرض التى تغرس فيها أقدامها اللعينة وانقطعت عن الكلية قرابة شهر حتى لا أراها حتى لا تتجسد المأساة أمامى من جديد ومرت سنوات ثلاث

كنت لاأستطيع خلالها مقاومة التفكير في فاطمة طول الوقت ·· ثم وجـــدت كراهيتى لها وحقدى عليها يقلان شيئا فشيئا لقد تحولت الكراهية الى حب غامر عنيف ·· ان الحب والكراهية كلاهما اهتمام شديد بشخص معين له علاقـة وثيقة بنا ·· كنت أمقتها فى البـــداية بشدة ·· هل لأنها لم تبكى أو تحزن أو تحاول الانتحار عندما مات صديقى فوزى وأبصرت صورته معلقة فى المدرج؟ هذا هو رأيى وهـــذه هى الحقيقه التى أبصرها ولكن ماذا كان رأيها هى ؟ ان الحقيقة مسألة نسبية ·· لكل منا حقيقته التى يعيش فيها ويحصر نفسه داخلها ·· من الممكن جدا أنها لم تكن تبادله أية عاطفة وأنه أوهم نفسه أنها تحبـه بينما هى لا تدرى به تماما وهكذا نقع دائما فى سلسلة من المتناقضات والأعمال التى كان من الممكن ألا تحدث لو كانت نظرة الشخص منـــا عميقة نافذة ليرى بها الحقيقة كاملة غير منقوصة ·· وكنت أشعر فى أحيان كثيرة أنهـــا مظلومة وبريئة وأن حقدى وكراهيتى لها لم يكن لهـا أى مبرر وتزوجنـــا بعد التخرج مباشرة ومرت شـــهور أربعة حتى الآن منذ تزوجنا أشعر أحيانا برغبة ملحة فى ايذائها وأتعمد مضايقتهـــا وأثور بعنف على أتفه غلطة ترتكبهـــا وعندئذ تبكى هى طويلا وتدفن رأسهـــا بين راحتيها ولا تتكلم وأحس فى نفس الوقت أنها رائعة وديعة لا تستحق منى كل ذلك وأكاد أبكى عند قدميها وأنا أصالحها أزور صديقى فوزى فى نفس اليوم من كل عام ·· اليوم الذى دفن فيه ··· وهذه المرة شعرت كأنه يخرج من مقبرته يصرخ ويبكى ويمزق وجهـه بمدية ثم يحاول الاقتراب منا وقد غابت الابتسامة عن وجهه ومديتـــه ما زالت راقدة بين يديه كأنه رأى فاطمة وهى لا تلتفت الى صورته المعلقة فى المدرج وكأنه شاهدها وهى لا تشترك فى جنازته بل وتذهب الى حفلة السينما الصباحية وكأنه يراني وأنا أسرق فاطمة وأتزوجها ·· أشعر الآن بتمزق هائل فى جســـدى وعقلى وعيناى تنتقلان بين عداد السرعة والطريق والمرآة التى أرى فيها فاطمة وكادت عملية القيادة أن تفلت من يدى وتصـــطدم بعربة أتوبيس تفوه سائقها بعدهـــا بكلمات جعلت جسدى كله يهتز بالضحك ثم وجدت نفسى أقول لفاطمة وسعادة غامرة تسيطر على جسدى ·

ـ كيف تبدين الآن يا زوجتى العزيزة ·· لا عليك ·· ســـنصل بعد نصف ساعة الى ميت غمر ·

ورأيتها فى المرآة وقد ارتسمت دهشة كبيرة على وجهها وظلت صامتة بعـض الوقت كأنها لا تصـــدق الكلمات التى ترددت على مسامعهـــا منذ لحظة ·· ثم ابتسمت وقذفت بكتابهـــا ··· كانت ابتسامة عذبة صافية لم أرها من قبـل على شفيتها ثم انتصبت من مكانهـــا وطوقت عنقى بذراعيها وقبلتنى وقالت وشعرات رأسى الخشنة تنكسر تحت وقع أصابعها الطويلة النحيلة : ـ

ـ لا يهمك يا زوجى العزيز ·· نصف ساعة ·· ساعة ·· المهم أن نصل معا

وأكتم الضحك بين لحظة وأخرى كلمـا تذكرت كلمات سائق الأتوبيس النابية والشرر الذى كان يتطاير من عينيـــه بعد أن كدت أصطدم به فى الطريق ·

« د · محمد أحمد الشرقاوى »